وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المتطرفون الإسلاميون و«الخوارج»: أوجه الشبه ونقاط الاختلاف

الحياة: السبت, 21 نوفمبر 2009

عمار علي حسن *

للوهلة الأولى تبدو المطابقة بين «الخوارج» في زمانهم الذي ولى و «الجماعات الإسلامية الراديكالية» المعاصرة أمراً غير قابل للدحض، أو حتى النقد العميق. فهذه الجماعات، إذا نظرنا في عجالة إلى علاقتها بالنص والسلطة، تبدو ظاهرياً مجرد إعادة إنتاج، في سياق جديد، للخوارج أو «الشراة» أو «الجماعة المؤمنة»، كما كان يحلو لهم أن يطلقوا على أنفسهم، بوصفهم من اشتروا الآخرة بالدنيا، وأنهم المؤمنون من دون غيرهم.

وإذا كانت المراجعة التي قام بها بعض قادة «الجماعة الإسلامية» في مصر لأفكارهم وسلوكهم تنأى بهم، في بعض الأمور، عن التماثل الجزئي مع الخوارج، بوصفهم أحد حركات الاحتجاج السياسي - الديني في التاريخ الإسلامي، فإن التعامل مع هذه المراجعة على أنها مجرد «تكتيك» وليس عدولاً عن المواقف والأفكار، أو أنها أمر يخص من قاموا بها فقط، وليس بمقدورهم أن يلزموا أتباع الجماعة الآخرين بشيء منها، يجعل المضاهاة بين الخوارج والتنظيمات الإسلامية المتطرفة، أمر قابل للنظر، ليس في الوقت الراهن فحسب، بل في المدى المنظور أيضاً.

وإذا أخذنا الحال المصرية نموذجاً نجد أن أوجه الشبه تبدو كثيرة بين الفريقين، حيث التعامل الحرفي مع النص، الذي يعني تأويل النصوص من آيات قرآنية وأحاديث نبوية بظاهرها وليس بالمعاني الكامنة فيها والعلل البعيدة لها، وسياقها التاريخي - الاجتماعي أو الموقف المحيط بها، وهو ما أسماه الفقهاء سبب نزول الآية. وهذا الوضع طالما أنتج لدى الطرفين سلوكيات تتنافر مع مواقف الجماعة، أو الأغلبية المسلمة، وطالما قاد في تاريخ المسلمين على مدار القرون التي خلت إلى ظاهرة الانشطار والانشقاق والتنوع، التي تبدأ بالاختلاف وتصل إلى حد الصراع الدموي.

ويتماثل الجانبان، إلى حد كبير، في الاعتقاد بأن الأتباع هم «المؤمنون» أو على الأقل «المسلمون» وما عداهم غير ذلك، ومنازلة «أئمة الجور»، من وجهة نظرهم، بالسيف، واستخدام القوة في تطبيق «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، والسخرية من مواقف الخصوم وآرائهم. فحين أطلق خصوم «الخوارج» هذه التسمية عليهم، باعتبارهم خارجين على أئمة العدل، قبلوا هذا النعت وقالوا إنهم خارجون على أئمة الجور، وأنهم «الجماعة المؤمنة» القائمة على الجهاد في سبيل الله، بل بحثوا عن آية في القرآن الكريم يبرر تأويلهم لها موقفهم هذا، فكانت الآية السادسة والأربعون من سورة «التوبة» التي يقول فيها الله سبحانه وتعالى: «ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة...». أما أتباع التنظيمات والجماعات المتطرفة المعاصرة في مصر، التي ترفع من الإسلام شعاراً سياسياً لها، فلم يمتعضوا من نعتهم بالإرهاب، وقالوا شفاهة وكتابة إن «المؤمن يجب أن يكون إرهابياً»، لأنه «يرهب أعداء الله والمسلمين»، بحسب تفسيرهم الحرفي لنص الآية الكريمة: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ...». وأطلقت بعض هذه الجماعات على نفسها أسماء شبيهة بما ذهب إليه الخوارج، فها هم أتباع شكري مصطفى المعروفون إعلامياً باسم «تنظيم التكفير والهجرة» يسمون جماعتهم «جماعة المؤمنين»، وها هم آخرون يطلقون على أنفسهم «الناجون من النار» أو حتى «الجماعة الإسلامية».

ومثل هذا الوضع انسحب على الحياة السياسية عند الخوارج وأتباع الجماعات الإسلامية الراديكالية في مصر. فالخوارج أجابوا عن التساؤل الجوهري في هذا المضمار وهو: هل حكام بني أمية الذين ارتكبوا الكبائر مؤمنون؟ أم كافرون؟ أم منافقون على الأقل؟ وكانت الإجابة هي الكفر البين، الذي انسحب من رموز الدولة إلى سائر من يخالف الخوارج الرأي والموقف. وأجاب أتباع الجماعات المتطرفة الراهنة في مصر عن التساؤل نفسه بالإجابة عينها، استناداً إلى تأويل الآيات القرآنية الثلاث التي تضمنتها سورة «المائدة» والتي تنتهي جميعها بقول الله سبحانه وتعالى «... ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» و «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون» و «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون». وترجع هذه الجماعات في مسألة التكفير إلى أفكار ابن تيمية التي ارتبطت بسياق تاريخي بررها إلى حد كبير، إذ أطلقها ضد حكام الدويلات الذين تواطؤوا مع التتار أثناء اجتياحهم العسكري لأرض الخلافة الإسلامية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

كما يتشابه الفريقان في ظاهرة «التفتت» أو «الانشطار»، فالخوارج بلغوا، في رحلتهم التاريخية الطويلة، نحو سبع وعشرين فرقة، والجماعات الراهنة تشهد دوماً انشقاقات كبيرة وهامشية وولادة تنظيمات جديدة. وهذه الانشقاقات وذلك التعدد قام، بحسب ما سبقت الإشارة، على اختلاف في الفروع، وإن كان هناك اتفاق في الأصول.

وامتد هذا التشابه إلى ما يرتبط بوجود «جماعات كبيرة» وأخرى «هامشية» أو صغيرة داخل الفصيل أو الاتجاه الواحد. فالخوارج على رغم كثرة فرقهم فإن حركتهم انتظمت أساساً في أربع فرق رئيسة هي: «الأزارقة»، نسبة إلى إمامهم نافع بن الأزرق، و «النجدات» بحسب اسم إمامهم وهو نجدة بن عامر الحنفي، و «الأباضية» وهم أتباع عبدالله بن أباض، و «الصفرية»، وإمامهم زياد الأصفر. وقد اندثرت هذه الفرق جميعها، وصارت جزءاً من التاريخ السياسي - الاجتماعي للمسلمين، ولم يبق منها سوى «الأباضية»، التي يتركز أكثر أتباعها في سلطنة عمان وشرق أفريقيا وبعض بلدان المغرب العربي.

أما الجماعات الإسلامية الراديكالية في مصر الآن، فقد تدرجت من الجماعات الكبيرة، مثل «الجماعة الإسلامية» و «الجهاد» إلى التنظيمات الهامشية الصغيرة أو النووية، مثل تنظيم «السمني» و «الأهرام» و «جهاد الساحل» و «الواثقون من النصر» و «الغرباء» و «تنظيم أحمد يوسف» و «الفرماويون» و «الناجون من النار» و «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» و «التكفير الجديد» و«أبناء الصعيد» و «النذير» و «التوحيد»، و«الشوقيون»، و «جماعة الفتح» و «الخلافة» و «جنود الرحمن» و «العصبة الهاشمية» و«مجموعة التسعين»، و «القصاص العادل»، و «القرآنيون» و «الجهاد الصحيح»، و«السماويون»، و «القطبيون». وبينما اندثر الكثير من هذه التنظيمات الهامشية، فإن «الجماعة الإسلامية» و «الجهاد» لا تزالان الجماعتين الأهم، القادرتين على تغيير بعض تكتيكاتهما ومساراتهما، مثل المراجعة الراهنة للجماعة الإسلامية، وحالة الانكماش أو الكمون والتشتت التي يعيشها تنظيم الجهاد.

لكن إمعان النظر في الطرح العقدي - السياسي للخوارج يقود إلى نتائج مغايرة، إذ يظهرون فيها في موضع من أتى بالسياسة إلى الدين، على النقيض من الجماعات الإسلامية الراديكالية المعاصرة التي أتت بالدين إلى السياسة. أما المنخرطون في صفوف الجماعات الإسلامية الراديكالية الراهنة فهم ممارسو سياسة من المنشأ حتى لو ارتدوا ثوب الدين، إذ إن قيام جماعة «الإخوان المسلمين» عام 1928 كان في جانب كبير منه رد فعل لسقوط الخلافة الإسلامية قبل ذلك بأربعة أعوام فقط، وهي إن كانت قد بدأت «دعوية» كي لا تستعدي الإنكليز الذين كانوا يحتلون مصر وقتها، سريعاً ما دخلت إلى حلبة السياسة، فتقاطعت في فترة تاريخية ما مع القصر الملكي، وناوشت الاحتلال الإنكليزي. ولما قامت حركة الضباط في تموز (يوليو) من عام 1952 دخلت في مواجهة معها انتهت بمحنتي 1954 و1965 لهذه الجماعة، التي استعادت قوتها حين استخدمها الرئيس الراحل أنور السادات في ضرب اليسار المصري. وبالتتابع صارت تصنف كجماعة سياسية ذات بعد ديني، وليست جماعة دينية دعوية محضة، حال «التبليغ والدعوة» أو «أنصار السنة المحمدية» أو «الجمعية الشرعية للعاملين بالكتاب والسنة» وغيرها. وبالاختلاف مع جماعة «الإخوان» والانشقاق عليها ومحاولة مضارعتها أو إزاحتها أو استجابة لما رتبته السلطة في وقت ما، ولدت الجماعات الإسلامية الراديكالية، وراحت تؤسس خطابها المختلف وترمي الإخوان بالتقاعس، وتنتقد خطابهم السلمي، بعد تخليهم عن العنف، ومسلكهم المدني، بعد التعديلات الجزئية التي أدخلوها على تفكيرهم السياسي.

* كاتب مصري

This file was downloaded from QuranicThought.com